محاربة الجمور (١)

(١)

سادتي الاعزاء

اشكركم من اعماق قلبي لتشريفكم بالحضور واني لمغتبط لتقديركم الفضائل حق قدرها وتشجيعكم خدام الانسانية وتقديم المساعدة اليهم لاداء مهمتهم المقدسة

واني مدين لجناب الاستاذ الفاضل الدكتور هربر طبيب المستشفى الانجليزي بواجب الشكر الجزيل لتفضله بدعوتي لالقاء هذه المحاضرة على مسامع حضراتكم واعد نفسي سعيداً لانتهاز هذه الفرصة والقيام بتلبية دعوته الصادرة عن حب الخير لذاته وخدمة المجموع خدمة خالصة

انا الآن في عصر بلغت فيه المدنية شأواً عظيماً فقد كثرت معاهد التعليم وانتشرت المؤلفات والجرائد والمجلات وتعددت الاكتشافات المدهشة على اختلاف انواعها كالتلغراف السلكي والتلغراف الاثيري والتليفون واستخدام البخار والكهرباء والطيارات والسيارات والغازات الخانقة والآلات الحربية المهلكة والاكتشافات الطبية العميمة النفع التي يضيق المقام عن سردها . ولا تزال الانباء ترد من آن لآخر بما يستجد من المخترعات التي تفيد الانسانية او التي تدل على تقدم العلوم المادية والعقلية

اما حالة العالم الادبية فلم تتحسن ولم تتمش مع الرقي المادي بل لا اكون مغالياً اذا قلت انها تأخرت بالرغم مما نراه من تقدم العلوم وكثرة الاختراعات. فقد استولى على الناس الطمع والجشع وحب المال وضعفت العواطف الشريفة وسارت العلوم المادية في غير طريقها فاصبحت خطراً على الانسانية اذ بعد ان كان الفرد يصارع الفرد والقبيلة تحارب القبيلة متخذة الحراب والسهام آلات للقتال اصبحت عشرات الامم في زماننا هذا تتقاتل وتتطاحن في آن واحد بأسلحة جهنمية مهلكة وتفنى ملايين من الجنود بمواد سامة وتبيد بمفرقعات تقذف من الارض والماء

(١) محاضرة لحضرة محمد افندي رضا امين مكتبة الجامعة المصرية القاها في المستشفى الانكليزي في ١٢ ابريل الماضي

والهواء وتنفق المليارات من الجنيهات لسحق الشعوب وتقويض دعائم المدنية. كل ذلك بفضل مطامع السياسة وتدابير القادة واكتشافات العلماء الذين افرغوا وسعهم وسخروا علومهم ومواهبهم لهلاك الانسان وتدمير البنيان وتيتيم الاطفال وشقاء الاسر ونشر المجاعات والامراض بين البشر. وعدا ذلك فقد انتشرت الرذائل انتشاراً مزعجاً وفسدت الاخلاق وانحطت الآداب وأهمل الدين وضعف اليقين واصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر والفاضل منبوذاً مهجوراً والعفيف مهملاً محروماً وغدا الملحدون والفاسقون والمدمنون واهل الخلاعة والمجون هم الاحرار المتمدنون والظرفاء المتنعمون والاكياس النابهون

ان بقاء الحال على هذا المنوال مؤذن بالشر ومفض الى اوخم العواقب. فالواجب على رجال الامم ذوي العقول الراجحة والآداب السامية ان يبذلوا جهدهم لاصلاح الفاسد وتقويم المعوج وبالاجمال توجيه المجهودات كلها الى ما يعود على المجتمع الانساني بالخير والفلاح

اما نحن معاشر الشرقيين والاخذين في النهوض فيجب علينا ان نؤسس مدنيتنا على دعائم متينة واسس ثابتة قويمة وعلى قادتنا وعلمائنا واولي الرأي ان يتأملوا في مدنية الغرب فلا ينقلوها الينا بحذافيرها من غير تمييز بين الطيب والخبيث والنافع والضار. وليس من الصعب ان يفرق العاقل بين مظاهر القوة والرقي ومظاهر الانحلال والفساد التي ترى في الامم المتمدنة اذ كل منهما بيّن ومن الخطأ الفاضح ان يحسب المرء ان هذه الامم خالية من شوائب الرذائل وانها طاهرة نقية ليس فيها الا كل حسن وان من الحكمة والحذق اقتفاء اثرها في جميع السبل وتقليدها في كل الاعمال

وقد انبأنا التاريخ ان الامم انما نهضت وسادت بالاخلاق الحسنة والاعمال الجليلة والعلوم النافعة والصناعات الشريفة فمن الحزم ان نتنافسها في هذه الميادين لنبلغ ما نتمنى من عز ومؤدد. ولم يبلغنا ان امة منذ الخليقة الى الآن سادت بالخمور والفجور والقمار وما شاكل ذلك

نعم هذه المظاهر قد ترى فاشية في الامم المتمدنة الا انها من دلائل الهرم والشيخوخة وعوامل الانحطاط والانحلال وليست من اسباب الرقي وارتفاع الشأن بحال من الاحوال فهي بمثابة علل وآفات تعتري الامة فاذا تمكنت منها

وسرت في جسمها العتها الخراب والموت لا محالة . الاّ ان الامم تتفاوت في احتمال هذه العلل فالقومية اكثر احتمالاً واطول عمراً من سواها وان كانت العاقبة واحدة وهي الانحطاط والفناء من جرائها . فاذا كانت هذه عاقبة الرذائل في الامم المتمدنة والشعوب المتحضرة فاذا يكون الحال اذا سرت فينا وغفلنا عن معالجتها واستئصال شأفتها ونحن على ابواب الرقي

ايها السادة

ان من اشد آفات المدنية خطراً على الانسانية ادمان المشروبات الروحية وقد كانت الخمر شائعة عند العرب في زمن الجاهلية ثم حرمتها الشريعة الاسلامية درأً للشر والفساد والعلل وحدّت شاربها اعني عاقبتهُ بالضرب من غير تمييز بين الاشراف وغيرهم من عامة الناس

قال النبي صلى الله عليهِ وسلم «ما اسكر كثيرهُ فقليلهُ حرام» وكذا نهى النبي صلى الله عليهِ وسلم عن كل مسكر ومفتر والمفترّ كل شراب يورث الفتور والخدر في الاعضاء وهذا يتناول جميع انواع الاشربة والمخدرات

والمسلمون يعلمون حق العلم ان دينهم يحرم الخمور ولكنهم اهملوا تعاليم الدين وخالفوا اوامرهُ واقبلوا على المسكرات التي انتشرت في بلادهم وكانت من اهم العوامل في تجرعها والتهافت عليها التقليد فالشرقي يقلد الغربي تقليداً اعمى كالاطفال والسبب في ذلك كما قال ابن خلدون في مقدمتهِ « ان النفس ابداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليهِ اما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمهِ او لما تغالط بهِ من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت بهِ وذلك هو الاقتداء»

على ان الامم الغربية التي نقلدها بلا امعان ولا روّية قد ادركت اخيراً خطر الخمور وهذه الولايات المتحدة فانها حرمت المسكرات بانواعها من بلادها بعد ان وضعت الحرب اوزارها وقد كانت قبل ذلك مفرطة في تناول المشروبات الروحية فلما اشتركت في الحرب اصدرت هي وانجلترا اوامر مشددة تحرم الاتجار بالخمور في جميع الثغور والمسكرات والجهات المجاورة لها واندية الضباط وحرمت على الجنود والضباط في البر والبحر تناول اي نوع منها حتى الانبذة والبيرة لانهم وجدوا ان المسئولية التي على عاتق الجندي في ساحة القتال عظيمة جداً فان سمح

لهُ مع ذلك بتناول المسكرات صار عاجزاً عن القيام باعباء مهنتهِ الخطيرة كما ينبغي ولانهُ اتضح بالتجارب ان شارب الخمر اقل من غيره اقتداراً وكفاءة على الاستمرار على العمل لما يعتريهِ من الضعف والانحطاط في القوى والميل الى التشرد ومخالفة الاوامر وعدم الاكتراث لها

وقد اتخذت الولايات المتحدة وسائل شتى لتخفيف وطأة الخمور من بلادها خوفاً من وقوع الامة في مهاوي الهلاك والفناء

غير انها رأت بعد كثرة التجارب ان القوانين المشددة ومراقبة غش المشروبات ورفع قيم الرخص وزيادة الضرائب الجركية لم تأت بالنتيجة المرجوة من المنع وعلمت ان الاعتدال الذي كان ينصح بهِ المصلحون وعلماء الاخلاق وجمعيات العمال امر متعذر بل ان الاعتدال نفسهُ ينجم عنهُ مضار اجتماعية عظيمة وان البحث في المقدار الذي ينبغي ان لا يتجاوزهُ المعتدل حتى لا يصاب بضرر من المباحث العقيمة فحرمت الخمور بتاتاً واستراحت وحرمتها كندا ايضاً من بعض ولاياتها

من هذا ترون ان اميركا قد قاومت المشروبات الروحية بمقاومة عنيفة واجتازت كل العقبات الاجتماعية والاقتصادية التي اعترضتها وهي عقبات في غاية المنعة والقوة لسببين عظيمين

اولاً — لان السواد الاعظم هناك معتاد تناول الكحول من زمن بعيد والعادة اذا استحكمت صعب على اكثر النفوس التخلي عنها

ثانياً — لان اصحاب المعامل والبارات والنزل الذين يربحون من الكحول القناطير المقنطرة من الذهب كانوا يتذرون ويبدون مقاومة شديدة الا ان ارادة الامة وتنبه عقلائها حملا الولايات على اصدار قانون المنع نهائياً

***

ارسل اليَّ حضرة الفاضل صاحب مجلة اللطائف المصورة مقالة كتبها المستر و . ب . ويلر في مجلة ليزل الاميركية عن الفوائد التي عادت على اميركا من تحريم الخمور فترجمتها لاتلوها على حضراتكم

قال المستر ويلر بعد ان رد على الاعتراضات التي وجهت الى قانون المنع — ان الولايات المتحدة ستؤلف شعباً خالياً من شوائب التسمم الكحولي وقد

اتضح علمياً ان الكحول من اعظم الاسباب المضعفة للنسل والمؤدية الى الجنون والصرع والبله ولا يتحقق اصلاح هذه الاوجه اصلاحاً تاماً الا بعد مضي زمن طويل وانا نستنتج مما نراهُ من نقصان عدد الملتحقين بالملاجىء ولاسيما المستشفيات العقلية انهُ ان لم يأت قانون المنع بنتائج جديدة مفيدة فقد درأ الآفات التي تنجم عن الخمور. بيد ان شفاء العليل وبرء السقيم واصلاح المجرم وردع المذنب يكسب الجمهورية قوة على قوتها. هذا وقد نجم عن المنع نتائج باهرة في مدينة نيويورك الخاصة بسكان لا يكترثون للقانون كثيراً اذ تبين بالاحصاء انهُ قد نقص في عشرة الشهور الاولى من عام سنة ١٩٢٠ عدد جرائم القتل ٣٨ والقتل عمداً ٢١ والسرقات العادية ٢٠٠ وسرقات المنازل ١٠٠ والسرقات البسيطة ٢٠٣ والسرقات بواسطة تسلق الجدران ٧٥ وبلغت الغرامات التي دفعت منذ تنفيذ القانون نحو ٧٩٥ ٠٠٠ دولار وكذا بلغت حوادث التهريب التي اكتشفها الضباط اكثر من ١٧٠٠

وقال ان الولايات المتحدة ستصبح اغنى امة في العالم لانها ستدخر ما تستهلكهُ غيرها في الخمور. انها تدخر اكثر من بليوني دولار كانت تنفق سنوياً على المسكرات اضف الى ذلك مبلغاً مساوياً لهذا نتيجة الزيادة في قوة اليد العاملة وقلة الحوادث الناجمة من السكر لان الجرائم تكلف الامة مبالغ لا يستهان بها فتقليلها يفيد من الوجهة المالية. وقد لوحظ ان المواظبة على الحضور في المدارس زادت بنسبة عشرة في المائة منذ ابطال المشروبات

ولمنع الخمور تأثير واضح في الصحة وقد صرحت الجمعية الطبية الاهلية مراراً ان المشروبات الروحية خطر على حياة الافراد وصحتهم اما المعيشة المنزلية فستكون اسعد حالاً مما مضى وستتحسن ملابس الاطفال وغذاؤهم وعلى العموم فان منع تجارة المسكرات سيجعل الولايات المتحدة اقوى امة في العالم من الوجهة المالية والسياسية والادبية

هذا بعض ما كتبهُ المستر ويلر عنيت بتعريبهِ حتى يدرك الجمهور في مصر مقدار سرور عقلاء الامة الاميركية بمنع الخمور وما ينتظرونهُ من المستقبل الباهر

اما في انجلترا فيسرنا ان يصرح رئيس وزرائها المستر لويد جورج بهذه العبارة المأثورة التي تدل على مقدار تخوفهِ من الخمور وشرورها حيث قال :

« اننا نحارب المانيا والنمسا والمشروبات الروحية . واشد الاعداء فتكاً بنا على ما اعلم هي الخمور »

وفي سنة ١٩١٦ تألفت جمعية في انجلترا اسمها (قوة الحركة البريطانية) وقدمت عريضة الى الحكومة الانجليزية تطالبها بابطال الخمور في زمن الحرب موقعاً عليها من ٢٠٠٠٠٠٠٠ رجل في انجلترا وبلاد الغال واكثر من ٤٠٠٠٠٠٠ امرأة في اسكتلندة واكثر من ١٥٠ الف رجل في الصفر بعد ان ينوا بالتفصيل المضار العظيمة التي تنجم عن اباحة تناول المشروبات الروحية في الحرب

وكان من بين الموقعين على هذه العريضة كثير من الجنود والتجار وكبار الضباط ومراقبي الذخيرة ومديريها واعضاء البرلمان وممثلي التجار والصناع وارباب الفنون والاطباء والمعلمين والموسيقيين وغيرهم

هذا مثل نورده لما يبذلهُ عقلاء الامة الانجليزية في نشر الدعوة ضد الخمور ولا يخفى انهُ لولا ما تبين لهم من مضارها المحسوسة لما افرغوا وسعهم في تقبيحها والتنفير عنها ولما طالبوا الحكومة بابطالها وهم منهمكون بالحرب

وفي جميع البلاد الاوربية جمعيات غنية تنشر الدعوة ضد الخمور بطبع الكتب العلمية والنشرات العامة والقاء الخطب والمحاضرات واقامة المعارض التي تظهر اجسام السكارى المصابة بالكحول . ولا شك ان هذه الحركة ستقضي يوماً على الخمور فتطهر البلاد من آثامها وتريح العباد من سمومها

وقد حارب طلبة الجامعات في بلاد النرويج المشروبات الروحية ستة عشر عاماً وبلغ عدد اعضاء الجمعية الوطنية هنالك ٩٠٠ عضو . وفي الصين حركة ترمي الى ابطال الكحول اقتداء بالامة الاميركية ويقول زعماء هذه الحركة ان الصين قد عملت للتخلص من تجارة الافيون بعد جهاد دام خمسين عاماً فلا يصح بعد هذا الجهاد الطويل ان تحل كارثة التسمم الكحولي في محل الافيون . وقدمت جمعية الاعتدال اليابانية مذكرة الى الحكومة تلح عليها بمنع استخراج مشروب اسمهُ سيك SAKE يصنع من الارز وهو منتشر في اليابان بحجة ان ١٥٠٠٠٠٠٠ بوشل من الارز يستهلك سنوياً لاستخراج شراب السيك مع ملاحظة ان سكان اليابان يزيدون في كل عام نحو ٥٠٠٠٠٠ نسمة والمساحة المتزرعة ارزاً آخذة في النقصان

والمزارعون يهاجرون القرى ويتركون الاعمال الزراعية للاشتغال بالمعامل والمصانع في المدن ولذا تشير الجمعية على الحكومة بمنع السيك كي تستهلك هذه الكمية من الارز في تغذية الاهالي خشية حدوث المجاعات في المستقبل

اما الحركة في بلاد الانانصول ضد الخمور فناجحة اذ قد صدر قانون من المجلس الوطني الكبير في اقرة في شهر اكتوبر الماضي يقضي باتباع الشريعة الاسلامية في تحريم بيع الخمور او ابتياعها او شربها

هذا مجهود بعض الامم ضد الخمور اما نحن في مصر فلم نعمل شيئاً للآن ايها السادة

كل الناس حتى العوام يعلمون ويشعرون ان الخمور مضرة ولكن لا بوجه التفصيل بل بوجه عام — فاسمحوا لي ان اشرح بعض اعراضها وامراضها مما استفدته من الكتب الطبية الحديثة

ان الاستمرار على تناول المشروبات الروحية وهو ما يسمونه بالادمان يؤدي الى امراض كثيرة كالتدرس — داء المفاصل — وبعض انواع الروماتزم . والشلل . والحصاة . وتعتل الاعضاء الرئيسية كالقلب والمعدة والكليتان والمخ وتتعرض الرئة للاصابة ببعض الامراض المزمنة والآفات الفجائية المميتة

الكحول الذي يتناولهُ الانسان بعد تلطيفهِ بالماء يمتصهُ الدم فيصل الى الكبد ومنهُ الى القلب ثم الى الرئتين ثم يعود الى القلب ومنهُ يسري الى الجسم كلهِ ويظهر تأثيرهُ بغاية السرعة

قال الدكتور باركس في مؤلفهِ قانون الصحة

اذا تناول الانسان السليم او الحيوان عدة جرع من الكحول تبدو عليهِ الاعراض الآتية

(١) تمدد في اوعية المعدة وزيادة انسكاب العصير المعدي
(٢) زيادة دقات القلب
(٣) شلل جزئي للاعصاب المحركة للاوعية في سطح المعدة وهذا يسبب احمرارها
(٤) فقدان حاسة المخ فقداناً جزئياً وانحطاط قوة الحواس والعضلات
(٥) زيادة كمية البول وحموضتهِ

فالكحول يؤثر في القلب ويسرع في دقاته ويزيد مقدار الدم المقذوف في وقت معلوم وهذا يسبب تعب القلب

ان تناول الخمور يسبب اختلالاً في الهضم واماكاً وانحرافاً عاماً فيشتكي المصاب من فقدان شيء من شهوة الاكل في الصباح خصوصاً او عند الافطار ويشعر بكسل عند ما يستيقظ من النوم ويحاول التقيؤ في اول النهار وربما قاء شيئاً وقد يستطيع ان يأكل في الصباح ولكنهُ يشعر بعد ذلك بالمرض

اما ان كانت حالتهُ اسوأ من ذلك فان شهوة الطعام تكون عندهُ ناقصة ويزيد الشعور بالثقل وعدم الراحة بعد الاكل في الصباح خصوصاً ويشعر بثقل في الجانب الايمن

قال الدكتور بترزباي (Battersby) في كتابهِ الصحة في الخارج (Health Abroad) ان الذين لا يشربون الخمور اشد احتمالاً لبرد المحيط المتجمد وحرارة خط الاستواء من المعتدلين وان كأساً واحدة من الوسكي مع الصودا التي قد يتناولها الانجليزي في بلادهِ — يؤدي شربها في بلاد الهند الى داء السكتة

وقد دلت الاحصاءات في البلاد الاوربية على كثرة الوفيات بسبب الكحول بالرغم من قصور الاحصاء لان الوفيات الناتجة عن الخمور تدرج عادة ضمن امراض الكبد او القلب او الرئتين الخ اما في مصر فالاحصاء ناقص نقصاً واضحاً لا يستدل منهُ الاجتماعي على شيء يفيدهُ في مباحثهِ فائدة تذكر

ان الاضطراب والاختلال العقلي والاعتمال النفساني الذي يصيب بعض الناس من شرب الكحول هو خطر عظيم عليهم وقد يمكن تناول كمية كبيرة من الكحول مدة من الزمن من غير ان يتأثر الدماغ الاَّ قليلاً ولكن لا بد ان يأتي الوقت الذي فيهِ تفقد قوة المقاومة ويهن الدماغ فجأة ويحصل هذيان ارتعاش بشكل عنيف

وقد شوهد ان بعض المدمنين لا يلوح عليهم علامات الادمان الاعتيادية بل قد لا يلوح عليهم ارتجاف خفيف ثم يفاجئهم هذيان شديد مع جنون

يصاب مدمن الخمور غير ما ذكرنا بنوع من الهذيان الماليخولي فيتصور المريض انهُ في معمل تحقيق قضائي وانهُ مضطر للحضور بصفة شاهد أبكم ثم ينحط تدريجاً ويقل اعتناؤه بنفسهِ ولا يشتغل بما كان يشتغل بهِ وتنقص قواهُ الادبية والارادية نقصاً عظيماً ويتباعد عن المجتمعات وينفر عن الاصدقاء ولا يودعهم .

وقد شهر اصحاب الشراب بسوء العهد وقلة الحفاظ وانهم اصدقاؤك ما استغنيت حتى تفتقر وما عوفيت حتى تنكب وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك

يترك المدمن العنان لشهواته فيقبل على احتساء الخمور كل يوم بلا مبالاة ومن غير ان يحسب للعواقب حساباً ويجتاز كل عقبة تعترضهُ في سبيل السكر فان اعوزتهُ النقود حصل عليها باي وسيلة ولو بطريق غير شريف . وان نصحهُ ناصح واظهر لهُ ضرر الخمور والاستمرار على تناولها زعم انها تنشطهُ وتقويهِ وتدرأ عنهُ الآفات والهموم والوساوس وتجلب لهُ السرور والارتياح وتنجيهِ من الانحطاط ولا يفكر فيما يعقب ذلك من رد الفعل ويظل على هذه الحال الايام والشهور والسنين وهو يعلل ويفكر بحسب اهوائهِ الى ان يأتي وقت لا يستطيع فيهِ الامتناع باي حال من الاحوال واخيراً يقع في المتاعة اذا لم يطرأ عليهِ مرض عارضي يقضي الى انقضاء اجلهِ

ان العامل في التأثير ليس كمية الكحول الموجودة في المشروبات لا غير بل حالة اتحادهِ مع المواد الاخرى التي تدخل في تركيبها. فالبيرة التي هي من المشروبات الخفيفة تحدث امتلاء وتشحماً واختلالاً في الصفراء وتسبب داء النقرس . وهذا لا يرجع الى كمية الكحول فيها بل الى المواد التي تدخل في تركيبها. والانبذة تحتوي على مواد قابضة فتعوق الهضم . اما الويسكي فلهُ تأثير خاص في الكليتين والجلد. ويؤدي الاستمرار على تناول الابسنت الى نوع من انواع الجنون . وهكذا لكل نوع من انواع المسكرات امراض خاصة

وقد دلت المشاهدة على ان ابناء السكيرين شديدو التأثر بالكحول وانهم يسكرون من تجرع كمية قليلة جداً لا تؤثر في الرجل المعتاد اذا شربها لاستعدادهم الوراثي ويموت اغلبهم في طفولتهم الاولى بالتشنجات العصبية

ومن اقوى اسباب الزيادة في عدد المصابين بالامراض الكحولية السموم الداخلة في تحضير المشروبات الروحية الصناعية فن الانبذة مثلاً ما ليس فيهِ من عصير العنب الا القليل مع كونه في اللون والرائحة والطعم كالطبيعي منهُ. وقد شوهد في بعض المشروبات روح الخشب وروح البطاطس وما شاكل ذلك وبعض هذه المواد سم قاتل. قال الدكتور ريتولدس Reynolds في كتابهِ قانون الصحة « ان الكحول من اعظم السموم ضرراً في العالم »

ستأتي البقية